أبصرتكِ ولم ارك

فكنتِ في كل قصيدةٍ مطلعُها

رحاب القرآن

أبصرتكِ ولم أركِ

فكنتِ في كل قصيدةٍ مطلعُها

رحاب القرآن

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب: أبصرتكِ ولم أركِ

المؤلفة: رحاب القرآن

غلاف الكتاب: جيهان سمير

موك اب الكتاب: جيهان سمير

تنسيق داخلي: سها منصور

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

تنويه

كل ما في هذه الصفحات من وجعٍ وحبّ، من أسماء ووجوه، ليس إلا طيفًا من خيال الكاتبة، فإن صادف الواقع، فذاك لأن الخيال أصدق من الحقيقة أحيانًا.

★★★

إهداء

إلى رحاب القرآن التي لم تكن يومًا كاتبة بل عاشقةً وجدت في الورق قبرًا أرحب من الحياة، فدفنت فيه ذاتها عن طيب رضا.

وإلى كلّ من أحبَّ في صمت، ورأى دون أن يُرى، واحترق دون أن ينبّه دخانه أحدًا.

ما كُتب هذا النصّ سعيًا لنجاة بل لأنّ في القلب نارًا لم يُطفئها السكوت، وكان لا بدّ أن تُلقى على الورق لا على صدور الناس.

لقد بعثرتُ ذاتي بين السطور، فمن قرأني جيدًا وجد جثتي بين الحروف.

ولمــن رأى فــي ألمــي لحنًــا لا نشــازًا، شــكرًا لـــم تُنقـــذوني لكـــنّكم صـــنعتم مـــن مـــوتيِ حكايةً تستحق أن تُروى.

★★★

التمهيد

كان الزمان عباسيًّا مكلَّلًا بالمجد كأنّ الدنيا آنذاك ألبست بهاءها حُلّة الشعر، وتوشّحت بثوبٍ من ندى المجالس وعبق المداد.

بغدادُ تئنّ تحت وطأة الحكايا، جدرانها تحفظُ السرّ كما تحفظُ المصحف، وأزقّتُها تنامُ على وسائدِ القصصِ التي لم تُروَ، وتفيقُ كلَّ فجرٍ على قصيدةٍ تولدُ من رمادِ العشق أو جنونِ القلم.

لقد نشأتُ هناك، شاعرًا يتيمَ الهوى، لا أؤنسُ وحدتي بجاريةٍ تعزفُ، ولا أُؤثِرُ مجلسَ خليفةٍ تُسكبُ فيه كؤوسُ الراح على أنغامِ الرباب، أُطرّزُ وجعي على رقّ

القصـــــائد، وأســـــتر عـــــورتي العاطفيـــــة بوشاحِ الحرف.

نشـــأتُ فـــي بيـــتِ قـــاضٍ ورعٍ، أبـــي رجـــلٌ يـــرى فـــي بيـــتِ شـــعرٍ نكبـــةً، وفـــي غزليّـــاتِ المجـــانين رجسًـــا يُـــورِثُ الخســـران، مـــا عصيته يومًا، لكن قلبي، آهٍ من قلبي!

كـــان يكتـــبُ فـــي الظـــلامِ مـــا لا أســـتطيعُ أن أُجهرَ به في النور.

★★★

اقتربـــتْ فمـــال الزمـــانُ جهـــةً واحـــدة وتعطّلـــتْ حواسّـــي عـــدا البصـــر، أقســـمتُ أننـــي إن خاطبتُهـــا، فلـــن أنطـــق بحـــرفٍ إلا وقلـــبُ النحـــو يتبعُـــه عشـــقًا، فمـــا الجملـــةُ إن لـــم تبـــدأ بها؟ وما المعنى إن لم تشر إليه عيناها؟

قالت: السلام عليكم.

فانسكبَ السكونُ بيننا دهشةً، وارتبكَ الهواء حول نبرتها.

رُدّي، قلتُ لنفسي، رُدّي، لكنّ الحروف عِلقتْ في زحام النبض، فما استطاع فمي أن يسبق قلبي.

أجبتها: وعليكم السلام ورحمةُ الله وبركاته، وكلُّ الشوقِ أيضًا.

تبسّمت فكأنّ الدنيا أزهرت فجأة، قالت:

-أكنتَ تَرنو إليّ خُفيةً يا ابنَ الكِرام؟

-معاذ الله سيدتي بل كنتُ أحدّق في قدَرٍ، صدَفَ أن مرّ بكِ!

ضحكتْ فاختلّ توازنُ روحي، وسمعتُ دعاءً يهمسُ في داخلي:

-"اللهمّ ثبّتني عند الجَمال كما ثبّتَ موسى عند الطور."

★★★

هـل كانـت صُـدفةً أن التقيتُهـا؟ أم كُتبـتْ فـي ليـلٍ قـديمٍ حـين خطّـت الملائكـة أول سـطر من قدري؟

فـي ملامحهـا شـيءٌ مـن التـاريخ، عينـانِ تشـبهان أرشـيفَ الشـوق، وخطـواتٌ تمشـي كأنّهـا تـروي سـيرة أنثـى نزلـت مـن قصيدة.

أبصـرتكِ ولـم أرَكِ، فكنـتِ فـي كـل قصـيدةٍ مطلعها، وفي كل حلمٍ خاتمته.

★★★

الفصل الأول

"حين تلاقت أعيننا اختلّ ترتيبُ اللحظةِ في أفلاكِها وكأنّ الدنيا نسيت دورانها فاستقرّت على نبضةٍ واحدةٍ تُبارِكُ اللقاء."

★★★

ما الذي قد يحدث اذا توقّفت عقارب الزمن، لا لتُعلن موتًا بل لتهمس بميلادٍ؟

حين تشهق اللحظةُ نفسها كأنّها رأتْ ما لا يُرى؟

لم يكن الوقتُ صباحًا ولا مساءً بل شيئًا ثالثًا وُلد في عينيها حين نظرت إليّ.

نظرة واحدة كانت كافية لتُغلق عليّ السماءُ أبوابَها وتُبقيني حبيسًا في غيمة

ما نظرتُ إليها كأنثى، نظرةَ من يُفتَنُ بصورةٍ أو يُغرَمُ بخَصر بل كما ينظرُ العابدُ إلى آيةٍ من آياتِ اللهِ جلّ وعلا، آيةٍ لا تُتلى على العامّة ولا تمسّها يدٌ إلّا طاهرَ القلبِ، لم يخطُ في الخطيئةِ خُطوةً،

ولا دنّسَ سريرتَه رجسُ الهوى، في تلك اللحظة لم أكن سالم بن رياح، ولا الناسخ ولا الباحث، كنتُ مجرد قلبٍ نسي أنه في بغداد، ونسي أنه في دارٍ عامرة بالكتب والعلماء، قلباً نسي كلّ شيء.

★★★

بغداد، ضُحى خريفيّ بارد-سنة490 للهجرة.

كانت المدينة تُمسدُ شوارعها بأنفاس الصباح، حين خرج سالم، كعادته يحملُ كيسًا من رقاقٍ وبعضَ صحائفَ بيضاء، يمشي الهوينى بين أزقّة بغداد، يأنسُ إلى الصمتِ كما يأنسُ الشاعرُ إلى سكونِ الليل، فإنْ هدأت المدينةُ، نطقتْ يدُه بالحِبرِ، ونطقتْ روحُه بالحرفِ، بلغَ دارَ الكتبِ العامّةَ في الجانبِ الشرقيّ-

مجلـــــسَ العلمـــــاءِ، ومـــــأوى النُّسّـــــاخِ، ومســـرى أبنـــاءِ الـــبلاط- وطفـــقَ يفـــتّشُ عـــن ديـــوانٍ للمتنبـــي لـــم يكتمـــلْ نَســـخُه، فمـــا ظفـــرَ بالـــديوان ولكنّـــه-وســـبحانَ مـــن يُبـــدلُ الســـعيَ قَدرًا-وجدها.

★★★

دخلـــتْ بثـــوبٍ أســـود فضـــفاض تمســـك بيـــد جاريتهـــا، عينهـــا لا تنظـــر أمامهـــا بـــل خلـــف ســـتارة وجههـــا وكأنهـــا تخشـــى مـــن النـــور أن يفضـــح ســـرّها، فـــي يـــديها رقعـــة خضـــراء وعلـــى كتفهـــا عبـــاءة مـــن حريـــر الشـــام، ومـــع ذلـــك لـــم يكـــن فـــي الأمـــر شـــيءٌ يلفـــت النظـــر إلا عينيهـــا، تلـــك النظـــرة التـــي رمثْـــه بهـــا، نظـــرةٌ لا يُلقيهـــا عاشـــقٌ ولا متكبّـــر بـــل نظـــرةُ مـــن ذاقَ خيبـــةً ولـــم يشـــفَ

منهـــا بعـــد كأنّهـــا تقـــولُ لـــه "تمَعّـــنْ، فلـــن تراني بعد الآن."

وقـــف ســـالم مشـــدوهًا يحـــدّق دون أن يحـــدّق، تـــاه قلبُـــه قبـــل عينيـــه ثـــم ارتبـــك فأســـقط أوراقَـــه، فهـــرع يجمعُهـــا ســـريعًا وإذ بهـــا تركـــعُ قلـــيلًا لتناولـــه إحـــدى الرقـــاع، وهمستْ ولأول مرة يسمعُ صوتها قائلة:

-الشعر لا يُلقى على الأرض يا ابنَ الرياح.

-ولا الأميـــرات يـــا ســـيّدتي، لكـــنّ الســـماءَ أخطأت فأنزلتكِ إلى الثرى.

ارتجفـــت لكنّهـــا أخفـــت الارتعاشـــةَ خلـــف ابتسامةٍ خجلى ثم همستْ إلى جاريتها:

-مجنونٌ آخر أضافه الله إلى قائمةِ البلاء.

لكنّها لم تكن تُمازح جاريتَها بل تُخادعُ قلبَها.

★★★

غابت بين الرفوف وسالمُ ما زال واقفًا لا يعلم أوقعَ في العشق أم في حيرةٍ تُشبه الشعر حين يخذلُك أول البيت، لم يكن يدري أيّ شيء فيها جذبَه.

ثوبُها؟ مستحيل.

صوتُها؟ بالكاد همست.

عيناها؟ نعم، بل ذلك الشيء الغامض في العينين الذي لا يُقال.

اقتربت من سفرٍ كبيرٍ، سحبتْه من بين الكتب ووقفت تقرأ عنوانه: "مُناجاة العاشقين".

رفع سالم حاجبيه ثم تنحنح بصوت خفيض وقال:

-كُتبُ الهوى تُحرَق في قصرِ الخلافة لكنّها تُقرأ هنا؟

لم ترفع عينيها بل قالت وهي تقلب الصفحات:

-والقلـــوبُ تُحـــرَقُ فـــي صـــدورِ الرجـــال، لكنّها عند الشعراء تُغنّى.

ثـــم مشـــت، مشـــت كأنّهـــا ريـــحٌ طيّبـــة عبـــرتْ صـــدرَه، فمـــا تركتْـــه إلّا قِفـــارًا بعـــدَ ســـعة، وهشيمًا بعد امتلاء.

-كـــلُّ خُطـــوةٍ منهـــا بيـــتٌ مـــن قصـــيدةٍ، وكـــلُّ التفاتةٍ مطلعُ ديوانٍ لم يكتب بعد.

★★★

الفصل الثاني

"حين نُبِّئتُ أنني وقعتُ في فخّ المجد"

★★★

في اليوم التالي عاد سالم إلى دار الكتب، ليس بحثًا عن كتابٍ أو ديوانٍ بل عنها، في نفس الساعة ونفس المكان حتى إنّه جلس حيث وقفت بالأمس، انتظر طويلًا لكنها لم تأتِ، وفي اليوم الذي يليه كذلك لم تأتِ، حتى ناداه رجلٌ غريب، عجوزٌ كسا الشيبُ رأسَه، وكسرتِ الحكمةُ ظهرَ صمتِه، يضع عباءةً من صوفٍ ثقيل، وقف خلفه وهمس:

-ويحك يا فتى، أتدري مَن كانت تلك؟

التفتَ سالم ولم يقل شيئًا ظنًّا منه أنّه مجرّد مجنونٍ من مجانين بغداد الكثر لكنّ العجوز اقترب وحدّق في عينيه كأنّه يرى قلبه لا وجهه ثم قال:

-تلك ابنةُ القصر يا ابنَ الوجد، سليلةُ الخلافة من نسلِ هارون، جذورُها مغروسةٌ في تُرابِ العباسيّين، إنه لحرامٌ عليّ حتّى نُطقُ اسمها، ما بينك وبينها بحرٌ من ذهبٍ وسيوفٍ، وعارٍ ودموع.

تجمّد الدمُ في عروقه كأنّ اسمَه حُذِفَ من سجلاتِ الأحياءِ للحظة، ارتبك وارتعش، لم يعُد يرَ وجهَها كما رآه أول مرة بل رأى العرشَ خلفَ عينيها، والسيوفَ حولَ قدِّها، والتيجانَ في ظلّ خطاها، ثم قال بذهول:

-أحقٌّ ما تقول؟ أم تتسلّى بي كما يفعل الشيوخُ بمن تاه؟

أومأ الرجل برأسه ثم تمتم:

-إيّـــاكَ أن تُكمِـــلَ الطريـــق، العشـــقُ وُضـــوءٌ لا يليقُ بمَن لا يُجيدُ صلاةَ الملوك.

لـــم يـــنم ســـالم ليلتَهـــا، ظـــلّ يتقلّـــب فـــي فراشـــه يُحدّق في السقف ويهمس:

-أنـــا ابـــنُ الأزقّـــةِ المُتعبـــة، كيـــف وقعـــتُ فـــي حـــبّ امـــرأةٍ لـــو مـــرّتْ بـــين ســـطورِ التـــاريخ لأعادتْ كتابتَه؟

★★★

فـــي اليـــوم الثالـــث وجـــدها صـــدفةً، أو قـــدرًا، أو جـــزاءً لقلـــقٍ لـــم يعرفـــه مـــن قبـــل، رآهـــا تمســـحُ الغبـــارَ عـــن كتـــابٍ قـــديمٍ فـــي ســـوق الـــورّاقين وقـــف بعيـــدًا يراهـــا دون أن تجـــرؤ قـــدماه علـــى التقـــدّم، لكنّهـــا التفتـــت ونظـــرت إليه ثم قالت بنبرةٍ فيها دهشة لا تهكّم:

-أيها الغريب أتحبُّ الكتب؟ أم أنّني أُعيقُ مرورك؟

سالم ابتسم، لم يكن يملك شيئًا في تلك اللحظة إلّا صوتَه، فتركه يقول:

-بل أحبّ الحياة حين تمسّها يدُكِ.

ضحكت؛ يا الله، كم تاقت أذناه إلى تلك الضحكة، ضحكةٌ نقيّة، خافتة تُشبه أولَ قطرةِ مطرٍ بعد جفاف بل بدايةَ قَدَرٍ لا يُشبهُ إلّا القصائدَ المُعلّقة على أبوابِ الجنّة، أرادت قدماه أن تتقدّما نحوها لكنه تمالكَ نفسَه خشيةً من أن تتعثّر كلماتُه، فتعلم أنّه يعلم.

لاحقًا دلفتْ رُبى بنتُ هارون إلى مجلسِ الشِّعر في سوق الورّاقين وجلست على وسادةٍ منسوجةٍ بخيوطٍ زرقاء حولها صمتٌ لا يجرؤ أحدٌ على خرقه.

أمـــا ســـالم فقـــد جلـــس فـــي الزاويـــةِ المُظلمـــةِ مـــن المجلـــس يُخفـــي اضـــطرابَ نبضِـــه خلـــف كفّـــه، فيمـــا قلبُـــه يخـــتلسُ النّظـــراتِ إلـــى تلـــك الفاتنـــةِ الجليلـــة (رُبـــى) التـــي جلســـت علـــى بُعـــدِ خطـــوتين منـــه، لا تُحـــادثُ أحـــدًا، تكتفـــي بابتســـامةٍ نقيّـــة، وســـكونٍ مَهيـــب، ومـــا إن انتهـــى القُـــرّاءُ مـــن إنشـــادِهم حتـــى قـــام هـــو يُلقـــي علـــى مســـامعِ الجميـــعِ قصـــيدةً لـــم تكـــن فـــي دفتـــرِه، ولا أعـــدّ لهـــا وزنًـــا ولا قافيـــة بـــل خرجتْ من جوفِه كأنّها نداءٌ من السماء:

-"يـــا مَـــن دنـــا وجهُهـــا كالبـــدرِ فـــي فلكِـــه، مـــن أيّ سُلالةٍ أنتِ؟ قولي مَن خلَّفكِ؟

للهِ فيـــكِ جـــلالٌ بـــل ســـحرٌ، ومـــا غـــاب النـــورُ عن أطرافِ ظلّكِ."

لـــم تـــدركْ أنّ القصـــيدةَ كانـــت عنهـــا، ولا أنّ الشـــاعرَ ذا اللحيـــةِ الخفيفـــةِ والعينـــين المتقـــدّتَين قـــد وقـــعَ فـــي أســـرِها رغـــم أنّـــه يـــدري أنّ الـــدمَ الـــذي يســـري فـــي عروقِهـــا من ذهب.

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل الثالث

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

"النبضةُ التي أفلتتْ من لجامِها"

★★★

عــاد بــن ريــاح إلــى دارهِ ومــا فــي صــدرهِ ســوى رجــعُ نــداءٍ عــذبٍ يتــردَّدُ فــي فراغِــه، كانــت خطواتــه خفيفــةً كأنَّــه عائــدٌ مــن صــلاةٍ خاشــعة يهمــسُ لحجــارِ الــدربِ وكأنّهــا تُصــغي إلــى ســرّه، جلــسَ حيــث اعتــاد أن يخلــو لنفســه، لا ظــلَّ حولــه إلا مــن نــورِ ذكراهــا، وهنالــك تســلّلَ إلــى قلبــهِ هــولُ الإدراك.

-إنّها سلطانة!

سرتْ في مفاصلهِ قشعريرةُ الخوفِ الجليل.

أيعقل أن يُزهرَ قلبُه على حافّةِ المقصلة؟

أتُــراهُ إذا نطــقَ باســمها تخــرُّ رقبتُــهُ صــريعةً أمام حاشيةِ الدولة؟!

رفع يده إلى جبينه كمن تلقّى صفعةَ يقظة ثم انثنى إلى قرطاسه، وبقلبٍ يتقافز كطيرٍ مذعور كتب:

-"ما كنتُ أعلمُ ولا خُيِّل إليّ أن الهوى قد يتقاطعُ مع سُلالاتِ الخلافة، ولا كنتُ أظنُّ أن النورَ الذي أبصرتُه في عينيها، كان يُشبهُ ما يُحكى في كُتبِ الفتوحات، وعظمةِ خالقي إني لم أكن يومًا ماهرًا في فكّ ألغازِ السماء، ولكني مذ أبصرتُها أصبحتُ أتلو على قلبي آياتِ الهلاكِ طواعيةً."

ثم طوى الورقة ودفنها تحت وسادته، كأنّه يدفنُ فيها قلبه.

★★★

في المساء اجتمع في قاعةِ والده، وأضواءُ القناديل تلهو على جدرانِ

القصـــــر، أحاديـــثُ الرجـــال كانـــت عـــن السياســـة والتجـــارة، أمّـــا هـــو فجلـــسَ بيـــنهم جســـدًا دونَ روح، وحـــين نُـــودي باســـمه أفلـــتَ مـــن بـــين شـــفتيه اســـمها ســـهواً، فتجمّـــدت الوجـــوهُ وحـــدقوا فيـــه بـــذهولٍ إلا والدُه الذي زمجرَ بصوتٍ كالرعد:

-أتعلـــمُ مـــا تقـــولُ؟! أتُحـــادثُ عـــن نســـلِ الملـــوكِ يـــا فتـــى؟! أتُريـــدُ أن تُهـــدّ أركـــانَ بيتنا لأجلِ وهمٍ تسلّلَ إلى رأسِك؟!

لـــم يُجِـــب بـــل انحنـــى رأســـه كمـــن استســـلم للريح، لكنّ قلبه كان يصرخ في جوفه:

-"إنّـــي مـــا أحببتُهـــا كمـــا يُحـــبُّ الرعـــاعُ بـــل أحببتُهـــا كمـــا تُتلـــى الصـــلاةُ، وكمـــا تُرفـــعُ المظالمُ إلى السّماء."

فـــي تلـــك الليلـــة كتـــب قصـــيدةً وســـقاها مـــن دمـــه ثـــم دسّـــها بـــين أوراقِ كتبـــه، وأغلـــقَ على نفسه بابَ الغرفة.

-"هـــل تمـــوتُ الأشـــواقُ فـــي الظـــلّ، أم تنبـــتُ في الظلامِ أجنحةً من نار؟"

★★★

الفصل الرابع

"خنجرٌ في ظهر الحكاية"

★★★

مـــا إن انقضـــت تلـــك الليلـــةُ الثقيلـــة حتـــى جـاءه طـارقٌ فـي الهزيـعِ الأخيـر يُقـرعُ بابـه لا بالرقـة بـل بهمجيـةٍ تنـذرُ بـأنَّ شـيئًا كُسـرَ فـي قلـبِ المدينـة، فـتح سـالم البـاب فـإذا هـو بخـادمٍ عجـوزٍ يعرفـهُ مـن حاشـيةٍ قديمـةٍ للقصـر، قـد ابيضّـت لحيتـه لكـنّ عينيـه لـم تُطفئـا بعـدُ بريـق الحيلـة، قـال لـه همسًـا لا يسعفه فيه نَفَس:

-اهـرب يـا فتـى فقـد وقعـت عليـكَ العـينُ، واشتعلَتِ النارُ من تحتِ الرماد.

صُـعق كـأنّ السـماء انهـارت عليـه فجـأة، قال له مرتجفًا:

-ماذا حدث؟!

ردّ العجوز وهو ينظر حوله كأنّ الظلالَ تتنصّت:

-رسالتُك التي كتبتَها عن السلطانة وقعت في يدِ لا ترحم، أحدُ جواسيسِ الديوان دسَّ رأسه بين دفاترك وأوصلها إلى الوزير، ومن هناك بلغ الأمر إلى الخليفة ذاته.

سكت العجوز ثم أردفَ بصوتٍ أشبه بالمرثية:

-الخليفة أمرَ بك لكنّه تريّث، قال دعوه سنصطاده حين يظنّ أن النجاة بين يديه.

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بانفجارٍ صامتٍ، في اليوم ذاته أُعلن عن مجلسٍ شعريّ كبيرٍ في قاعة البرامكة دُعي إليه كِبارُ الأدباء والشعراء حتى سالم نفسه وقد أتاه الأمر بصيغة الإكرام لا الاستدعاء لكنّه أدرك أنها حفرةٌ مفروشةٌ بالمديح تُخفي خنجرًا من فولاذٍ

عباسيّ!، لبس عباءته الداكنة وودّعَ دفاتره كمن يودّع حياةً لن تعود، دخل القاعة، والنحاس يلمع، والعطر يفوح، والسيوف في زوايا المجلس مقبوضة لكنها جاهزة، جلس في أقصى الزاوية، وما إن استقرَّ فيه المقام حتى دخلَ الوزيرُ ذاته بثيابه المطرَّزة ونظره المشكوك في طهره، تتبعه زمرةُ من عيون الديوان، خاطبه أمام الحضور:

-يا سالم لقد أُعجبَ الوزير بشِعرك في بنتِه وأرادَ أن يسمعه من فمك لا من رقٍّ نُقلَ إليه.

سكنَ المجلس وتلفّت الشعراء، وأحسّ سالم بأنّ أنفاسه تُختنقُ تحت اللحى لكنّه قام وسحب من روحه كلماتٍ لا تشبه

أحدًا سواه، وقال بصوتٍ فيه من الحُزنِ ما يكفي لهدمِ قصرٍ:

-"يا من سكبتَ النورَ في عينيها، وجعلتَ جَفنَ الزمانِ سُجودًا لها، سلطانة روحي إني لأشهدُ لو أنّ العدلَ قد كُتبَ في شراينِ الخلق، لكنتُ أنا المِحراب، وكانت هي الصلاة."

ساد صمتٌ ثم تصفيقٌ فاتر، لكنّ الوزير لم يُصفّق بل ابتسم ابتسامةً فيها سيف حاد وقال:

-جميلٌ، لكنّ الحب يا سالم ليس له موطئٌ في بلاطِ الخلفاء.

بعد المجلس خرجَ سالم كأنّه خارجٌ من رَحِمِ موتٍ مؤجَّل، وفي الزقاق الخلفيّ كان ينتظرهُ رجلان بلباسٍ أسود.

ركض، ركض كمن يهرب من قيدٍ روحيّ لا جسديّ، شقّ الدروب القديمة، قفز فوق أسطحٍ مائلة، وجدرانٍ متآكلة، لكنّ الليلَ كان أبطأ من سيفٍ يلاحقه، حتى بلغ دارِ الورّاقين حيث لا تُفتَّشُ القلوب ولا الدفاتر بل تُؤمّن الأرواح لمن عشقوا الحبر أكثر من الخبز، فمكث هناك والقرار أمامه: إما أن يهرب ويتركها قيدَ القصر، أو يعود ليحرقَ التاريخ في سبيل نظرة.

★★★

الفصل الخامس

"بين نارَيْن"

★★★

فـــي ليـــلٍ لا تلامسُـــه نجـــوم، وبـــين جـــدران دار الـــورّاقين المغموســـة بـــالحبر والهـــرب، جلـــس ســـالم متّكئًـــا علـــى جـــرّةٍ قديمـــة يضـــمّد جراحـــه بخـــرقٍ مـــا عـــادت تعـــرف لونهـــا الأصـــلي كـــان الحبـــر لأول مـــرة لا يُســـكِّن فيـــه شـــيئًا، حتـــى ســـمع طرقـــاً خفيفـــاً علـــى الباب الخشبي ثم صوتٌ مألوف:

-سالم افتح، أنا أيهم.

نهـــض وقـــد تقلّصـــت روحـــه، لـــم يـــرد أن يُقابـــل وجهًـــا مـــن عـــالمٍ كـــان فيـــه شـــاعرًا وأصـــبح فيـــه ملاحقًـــا، فـــتح البـــاب فانـــدفع أيهـــم-رفيـــق طفولتـــه-ووجهـــه يقطـــر لهفـــةً، وصـــدره يعلـــو ويهـــبط كمـــا لـــو أنـــه هـــارب من شيء أو من نفسه، قال:

-وجدتك أخيرًا يا لصبر الأرض على أمثالك!

ثم احتضنه وكأنّ الطمأنينة كانت في كتفيه.

فسأله: كيف علمت بمكاني؟

فأجابه وهو يجلس إلى جواره:

-ليس في المدينة مكانٌ يختبئ فيه قلبك إلا بين الكتب.

ثم اقترب ببطء ونظر إليه كما ينظر الرفيقُ إلى من يعلمُ أنه سيفقده، وقال بصوتٍ مبحوح:

-سالم، بغداد تغلي عليك، والريحُ حمراء في الأسواق، اسمك صار على كل لسان.

فرفع شاعر الهوى رأسه، وابتسم ابتسامة العارف بالنهاية ثم قال:

-وما الجديد يا ابن المعتز؟ أليس الشعر منذ القدم هو باب المقاصل؟

اقتـــرب منـــه أكثـــر وجثـــا أمامـــه، وأمســـك بكفّه الملطّخة بحبر الخوف، وقال:

-إنّـــي لا أطلـــب منـــك أن تهـــرب بـــل أن تنقـــذ مـــا تبقّـــى مـــن اســـمك، اذهـــب إلـــى القصـــر، سـلّم نفسـك وقـل لهـم إنـك أحمـقُ لـم يعـرف مقـام الخليفـة وأنّ مـا بينـك وبـين السـلطانة كـان محـضَ خيـال، ربمـا يسـامحون، ربمـا يســجنونك عامًــا بــدل أن يُــذهبوا رأســك، وربّما

فيقاطعـه سـالم: وربمـا أبيـعُ نفسـي بـثمنٍ بخـس، فأصـير شـاعرَ التوبـةِ لا شـاعرَ العشـق، يـا بنـي أنـا لـم أحبّهـا كـأيّ امـرأة بل كأنّها آخر صفحة نزلت من السماء.

أطـرق أيهـم طـويلًا ثـم همـسَ وقـد اغرورقت عيناه:

-ولكنك لو متّ الآن من سيُكمل القصيدة؟

فـــنهض وراح يجـــول ببصـــره فـــي الغرفـــة الضـــيّقة، نظـــر إلـــى كتبـــه، إلـــى دفـــاتره التـــي تشبهه، ثم قال:

-ربّمـــا لا تحتـــاج القصـــيدة مـــن يُكملهـــا بـــل تحتاج من يموت عند آخر بيت.

تنهد أيهم ثم أردف وصوته يحمل أوجاعًا جليلة:

-ســـالم، قـــد بلغـــتَ مـــن الجنـــون أن جعلـــتَ مـــن القصـــيدة منبـــرًا، ومـــن اســـمها قافيـــة، ومن قلبك مذبحة ثم تلوذُ الآن بالحبر؟!

أشـــاح ســـالم عنـــه وقـــال بنبـــرةٍ ممزوجـــةٍ بالعزة والوجع:

-ومـــا الحـــبّ إن لـــم يكـــن مقامًـــا يُعـــرجُ إليـــه بالكلمـــات؟ أأُنكـــرُ ســـطوري لأُرضـــي مـــن لا يفهم كيف يُكتب القلب؟

اقتــرب منــه أيهــم ورفــع صــوته همسًــا كأنّــه يخشى أن يسمعه الورق:

-ربــى مــذ اختفيــتَ لــم ترفــع جفنًــا، غرقــت فــي بحــرٍ مــن الــدموع، والليــل لــم تنمــه مــن شهقاتها.

توقّــف الهــواء فــي رئــة ســالم وانكمــش النــور فــي عينيــه، وقــال بصــوتٍ ارتجــف كوترٍ مشدود:

-تبكي؟ عليّ؟

فيجيبــه أيهــم بنبــرةٍ غائمــة: لا أدري أكــان دمعهــا حبًّــا أم شــفقة لكنّهــا تبكــي، وهــذا وحــده يســتحقّ أن تُســلم نفســك لا للــوزير بل لقدرٍ لم يعد لك منه مفرّ.

حينهــا يســود صــمتٌ مهيــب ثــم يــنهض ســالم كمــن دفــن الحــرف فــي صــدره، وعــزم

على أن يواجه السيف بالكلمة، قال بهدوء يشبه الطوفان قبل انسكابه:

-سأذهب، لا لأُرضيهم ولا لأجل رقبةٍ أفلتت من حبل بل لأجل دمعةٍ لم أدرِ إن كانت تحبّني أم ترثيني وأنا حيّ.

★★★

الفصل السادس

"نبضٌ على حدِّ السّيف"

★★★

في صباح اليوم التالي خرج شاعر الهوى من جحره ليسلم نفسه، لم يرف له جفن في الليلة التي مضت، فقط صورة ربى تظهر أمام عينيه كلما فكر في التخلي عنها، وهو يسير على سراط الموت لم يكن يدري كيف نُقل من زقاق الحيّ المظلم إلى داخل القصر، لم تترك الفرقة خلفها أثرًا ولا سُمع لخطاها همسٌ كأنهم شُربوا من خفة الريح أو تدرّبوا في ظلال الجنّ، فُتح له باب من النحاس الممزوج بالذهب، كانت نقوشه تشهد لمهندسٍ عبقري وتروي حكاياتٍ من مجدٍ قديم، دخل وثيابه لا تزال مبللة بعرق الخوف، وقلبه يُجاهد للبقاء

صـــامتًا، خطـــا خطواتـــه الأولـــى فـــي دهليـــز طويـــلٍ مضـــاءٍ بمشـــاعلَ علّقـــت بـــين أعمـــدة رخاميـــة شـــاهقة، فســـمع صـــوتًا جهـــورًا يناديه:

-أنظر أمامك، لا يمين، لا شمال.

فرفـــع عينيـــه فـــإذا بـــه يـــرى رجـــلاً بلبـــاسٍ داكـــن حـــول خصـــره ســـيف، وعلـــى كتفـــه وشـــاح مـــن حريـــر أحمـــر، كـــان ذا هيبـــةٍ تجبـــر حتـــى الأشـــجار أن تنحنـــي لـــو مـــرّ بينها.

قال الرجل: أتدري أين أنت يا فتى؟

أجاب بصوتٍ مبحوح: في، في القصر؟

ضحك الرجل ضحكةً ساخرة وقال:

-بـــل فـــي موضـــعٍ يُســـأل فيـــه العاشـــق عـــن دمه إن أحبّ مَن لا يحقّ له.

تسارعت أنفاسه، خُيّل إليه أن الهواء في الممرّات اختفى، وأن الجدران تقترب منه شيئًا فشيئًا، سيقتلوه قبل أن يعتذر!

يدخل الوزير بعد حين بثيابٍ مطرّزة كأنها صفحةٌ من كتابٍ لا يُقرأ فيه سوى اسم الخليفة، فينظر إليه دون أن يبتسم ويقول:

-أنت سالم الذي ظنّ أن القصيدة تعلو على البلاط؟

يجيبه سالم بثبات: سيدي الوزير، لقد كنتُ أنوي الإعتذار منكم بالفعل.

ثم يأخذ نفساً عميقاً ويقول:

-جئتُ لأُزيل ما عَلِقَ بذاكرتكم من وهم، لم أقصد السيدة في قصيدتي بل كنت أهيمُ بفتاةٍ من عامةِ الناس أطلقتُ عليها لقب السلطانة لما في جمالها من جبروت لا نسبٍ ولا دمٍ ملكي.

يرفع الوزير حاجبه كأنّه سمع شيئًا لم يُقتنعه، فيقول:

-وهل يلقّب الحطّابون بنات العامة بألقاب الملوك؟!

-إنّي ما قصدتُ سوى أن أجعل من الجمال سلطاناً.

ثم يكمل بصوتٍ فيه ندمُ العارف:

-وإني واللهِ أثقلتُ بالشربِ يوم ذاك المجلس فخانني اللفظ، وما كان الذي جرى إلا سوء فهمٍ لم أقصده ولا أرضاه.

يناظره الوزير طويلًا ثم يطرق رأسه:

-الشعراءُ يا سالم قد يُغفر لهم ما لا يُغفر لغيرهم لكن عليهم أن يعلموا أن للقصورِ جدرانًا لا تصعدها القوافي.

ثم يضيف: لقد علمنا وأبلغنا الخليفة، والصفحُ قد يُكتب إن كان وراءه ندمٌ لا يُكتب.

بعد ثوانٍ من الصمت القاتل يشير إليه بالانصراف دون قولٍ زائد وقد فهم سالم أن ذمّة الخليفة قد انفرجت ولو مؤقتًا، يخرج من القصر كما لو أنه خرج من باطن قصيدةٍ ممزّقة، لا يدري أكان انتصر أم لوّث الصفحة الأخيرة، سار في الطرقات يلاحق ظله ويسأل نفسه:

-هل كانت دموع رُبى نابعة من حبٍ؟ أم من رأفةٍ بشاعرٍ سقط من سمائه؟ وهل غفر له الوزير أم ترك له الخنجر مغروسًا في ظهر الحكاية؟

لكنه الآن على الأقل لم يهرب بل واجه، وفي الحب لا يُلام من خسر إن كان قد قاتل بنبضه، يمضى وقد علم أن بعض القصائد لا تُكتب بالحبر بل تُكتَب على

أطـــــراف الســـــيوف، وأنّ الخنجـــــر الـــــذي غُـــرس فـــي ظهـــر الحكايـــة كـــان منقوشًـــا باسم الحبّ لكنّ قبضته في يد السياسة.

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل السابع

"وعدتِ ... كأنكِ ما غِبتِ يومًا"

★★★

سالم بعد أن انكفأ عن الأضواءِ، وسكتَ عنهُ العالمُ صمتَ الجحود، لم يعد الفرحُ يعرفُ إليهِ دربًا، ولا الحروفُ تُنجبُ وجعًا يُشبِهُه، عادَ إلى ذاك المكان-الركنِ المعزولِ تحديدًا-حيثُ لمحها أوّل مرّة، جلسَ على تلك المصطبةِ الخشبيةِ المهترئة وأخرجَ دفتره القديم لا ليكتبَ شعرًا بل ليكفكفَ بقلمهِ ما تساقطَ من روحهِ بعد أن جفّ نبضه، لم يكتبْ اسمها، ولم يستدعِ طيفها، لكنه تركَ بياضَ الورقِ يذرفُ بدلًا منه، كان الشتاءُ قد تسلّلَ إلى أطرافِ المساء، فارتجفَ القلمُ بين أصابعه تمامًا كما ارتجفَ قلبُه حين نطقَ اسمها ذات لقاء،

وفجأة تقدّمت خطواتٌ هادئةٌ من الخلف كما لو أنّ الليلَ نفسهُ يخشى أن يُوقظَ ما سكن، أجل، إنها رُبى، لم تقل شيئًا بادئ الأمر، واكتفت بنظرةٍ دامعةٍ تقفُ على ضفافِ التساؤل، فقال دون أن يلتفت:

-أجئتِ لتهدي السلامَ إلى من دفنه الكلام؟

-كنتُ أراك تكتب، فهل كنتَ تكتبني؟

يُجيبها والابتسامة ترفّ على شفتيه جُرحًا:

-بل أكتبُ من كنتِ قبل أن تُطفئكِ الملامحُ السلطانية، ومن كنتُ أنا قبل أن أُمحى.

تتقدّم نحوه وحينها يرفعُ رأسه ببطء فينظر إليها، لم تكن رُبى الباذخة في حضورها بل رُبى العارية من التاج، المُتعبة من المرايا، العائدة من قصرٍ لا

يُشبهها، تقول وقد تردّد قلبُها في خافقيها:

-لستُ أدري، أأعتب عليك لأنك خذلتني أم على نفسي لأنني صدّقتك.

ثم تسأل والعبَرةُ تخنقُ صوتها:

-قل لي لمّا أن نطقتَ بذلك، أكنتَ تكذب لتنجو بنفسك؟ أم تصدق لتُرضي قلبي؟

يصمت كأنَّ الكلامَ أُثقلَ في حنجرته فتتقدّم خطوةً وتهمس بنبرةٍ بين الشكِّ والرجاء:

-لو كنتَ كذبتَ لأجل نجاتك فقد قتلتني، ولو صدقتَ لأجل قلبي فقد أحييتني.

فيقاطعها قبل أن تكمل ونظره يفيض بعمرٍ من الانكسارات:

-ما كنتُ يومًا سيّد نفسي أمامكِ، أنا عبدٌ لنظرتكِ، تائبٌ في محرابِ صمتكِ، وما

نطقتُ يومها إلا وجفني يرتعشُ خيانةً لدمعي، لم أكن جبانًا بل كنتُ مكسورًا.

ثم يمدّ يده نحو دفتره، يفتحه على الصفحة البيضاء ويقول:

-هنا كنتُ أكتبكِ، جميلةً حين تصمتين، أقربَ إليّ حين تتوجّعين، وأصدقَ ما تكونين حين تنهارين، ولا تخجلين.

تدمع عيناها، فينكسر صوتها:

-سالم أنا لم أكن سلطانةً يومًا، أنا فقط أحببتك كما لا ينبغي.

فيهمس وقد استقرت الحقيقة في صوته:

-وما خانني سواي حين ظننتُ أنني قادرٌ على كبح ما يتفجّر في صدري كلما نطقتِ اسمي، ربي قد كنتِ بداية

القصيدة، وعذرَ دمعها الأخير، الحمد لله الذي زرع حبكِ لي في فؤادك، الحمد لله.

تطأطئ ربى رأسها قليلًا ثم ترفع نظرها إليه وفي عينيها رجاءٌ متأخّر، وهمسةُ أمنيةٍ تائهة:

-سالم أتظنّنا نستطيع أن نلتقي، فقط أنتَ وأنا؟ في مكانٍ لا يعرفنا فيه أحد، بعيدًا عن القصور، عن الألقاب، عن الأوامر والنواهي؟

يُحدّقُ فيها كأنّه يسمع نداءً من أعماقه، فتلمع عيناه ببريقٍ لطالما افتقده:

-أأنتِ من تطلبين الهرب؟

-لستُ أهرب، أنا فقط أريد أن أعرفك كما أنت بعيدًا عن رعب الحراس، وأريدك أن تراني كما أنا لا كما يشتهي البلاطُ أن أكون.

يصمت لحظةً ثم يُومئ برأسه:

-لـــيكن غـــدًا عنـــد الفجـــر تحـــت شـــجرة الصفصـــاف العتيقـــة، هنـــاك لا يعرفنـــا أحـــد ولا يُراقبنا التاريخ.

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل الثامن

"كوخ المطر واعترافات لا تُقال"

★★★

جاء الفجرُ رماديَّ الملامح يحمل في أنفاسه شيئًا من الغرابةِ كأنّه يعرف أن شيئًا لن يعود كما كان، كانت شجرةُ الصفصاف العتيقة تمتدّ كذِكرى قديمة على ضفاف النهر، وحين وصل سالم وجدها هناك قبله، ربى تقفُ بعيداً وعينيها تسبحان في الفراغ، ويداها ترتجفان كأنهما تمسكان بخوفٍ لا يُرى، لم تكن أميرةً، لم تكن سلطانةً، كانت فقط رُبى فتاةٌ بلَونِ الفجرِ وارتجافةِ الانتظار، تحاول أن تقبض على ما تبقّى من لحظة لم تُسفك بعد، حين أبصرته لم تبتسم بل جلست بهدوءٍ على العشب النديّ كأنها جاءت لتعترف لا لتُحب، فجلس بجوارها

قريبًا لكن لا قربًا يوقظ الخوف وكأن بينهما اتفاق: أن يبقيا صامتين ما استطاعا حتى ينفجر القلب وحده، لكنها كانت أول من خالف الصمت:

-سالم، هل تظن أنني جئتُ هاربة من القصر؟ لا، لقد هربتُ من نفسي.

نظر إليها بصمتٍ.

فأكملت: كنتُ أعيش كما يريد الجميع، كما يُراد لي أن أكون: أنيقة، محسوبة اللفظ، مرهوبةَ الخطوة، أميرةً من رأسها حتى أطراف ظلها؛ لكنني في كل مرآة كنتُ أرى فتاةً غريبة تصرخ في داخلي وتقول أريد أن أُحب.

ثم تنهدت وهمست كمن يعترف بخيانة:

-وأنـــا أحببتـــك ســـالم، لا لأنـــك شـــاعر، لا لأنـــك مختلـــف، بـــل لأنـــك الوحيـــد الـــذي لـــم ينحنِ أمامي.

أخفـــض ســـالم نظـــره كأنـــه خـــاف أن تنكســـر هيبتـــه لـــو رفَـــع عينيـــه فـــي عينيهـــا بعـــد هـــذا الاعتراف، ثم قال أخيرًا بصوتٍ هادئ:

-أنـــا كـــذلك أخفيـــتُ حبّـــي لـــكِ فـــي البدايـــة لأننـــي كنـــتُ أعلـــم أنـــكِ لســـتِ لـــي، أنـــتِ فـــوق مـــا أملـــك لكـــنّ قلبـــكِ كـــان يُصـــلي فـــي الاتجـــاه ذاته.

نظـــرت إليـــه مطـــولًا ثـــم ســـألته ووجههـــا غارقٌ في صدقٍ مفاجئ:

-لماذا لم تخبرني من قبل؟

-لأنني خفتُ أن لا تفهميني، فتعذبيني.

سكتت ثم قالت وقد اختنق صوتها:

-أريدك أن تعرف شيئًا، لم أخبر به أحدًا لا وصيفتي ولا حتى والدتي.

نظر إليها.

فتمتمت: كنتُ أكتب الشعر منذ كنتُ في العاشرة لكنني أخفيه بين ثنايا المخدّات، وأمزّق ما ينجو منه قبل أن يُكتشف أمري.

فيضحك سالم برفقٍ: إذًا كنا نكتبُ عن بعضنا دون أن ندري.

فتبتسم وتقول: أنا كنتُ أدري.

امتدت لحظةُ الصمت بينهما كما لو أنها دهرٌ حتى قال سالم:

-لو كان في هذا العالم عدلٌ، لخلعتِ التاج، ولبستِ قلبي.

فتــرد عليــه: ولــو كــان فــي هــذا العــالم حــبٌّ لما خفنا من لحظة كهذه.

لكــن اللحظــة لــم تكتمــل، ففجــأةً خــيّم علــى المكــانِ ظــلٌّ غريــب كــأنّ الصــمتَ نفســه ارتبــك، لمــح ســالم مــن بعيــد فارسَــين يقتربــان علــى صــهوات الخيــول، شــهقت رُبى وارتدّت خطوةً إلى الوراء:

-لقد اكتشفوا أمري!

فيمســك ســالم بيــدها علــى الفــور، ويقــول بصوتٍ خافتٍ لكنه حاسم:

-لا وقتَ للندم، تعالي!

ركضــا بــين الأشــجار وصــوت ســنابكِ الخيــول يضــربُ الأرض خلفهمــا كطبــولِ إنــذارٍ، وبــين أنفــاسٍ لاهثــة وقلبــين مــذعورين ظهــر كــوخٌ صــغير مهتــرئ،

مائلُ السقف كأنما نسيه الزمن في غمرة فوضاه، دفع سالم البابَ بكتفه وأدخلها قبل أن يغلقه ثم وضع إصبعه على شفتيها:

-لا صوت، لا حَركة.

انحبسا داخل العتمة ورجفةُ المطر بدأت تدقّ السقف كأنها تواسيهما، بعد لحظاتٍ من الخوف جلست ربى على الأرضية الخشبية يديها ترتجفان وعيناها زائغتان اقترب منها سالم جلس إلى جوارها وقال:

-أأنتِ بخير؟

أومأت برأسها ثم انفجرت فجأةً بالبكاء:

-أنا لا أعرف نفسي بعد الآن، سالم! أهرب معك، من أجل ماذا؟ لا بيت، لا مستقبل، لا سلطان يحمي.

فيقاطعها بنبرةِ تفاؤل: لكن هناك قلب ينبض.

ثم يرفع يدها إلى صدره ويقول:

-اسمعي، هذا القلبُ لم يعد يعرف إلا اسمكِ، ولو خسرنا العالمَ كلّه فلن نكون غرباء طالما نحن معًا.

فتغمض عينيها وتتكأ على كتفه، وحين فُتح الباب بقوة الريح فجأة تشبثت به أكثر لكن لا أحد دخل، كانت العاصفة وحدها تهدّدهم من الخارج، أما الداخل فقد صار ملاذًا مؤقتًا لحبٍّ يلفظ أنفاسه الأخيرة.

★★★

الفصل التاسع

"آخر دفء قبل العاصفة"

★★★

هـــدأ صـــوتُ المطـــر قلـــيلًا لكـــن قلبـــي العاشـــقين لـــم يعرفـــا الســـكون، كـــان الخـــوفُ يحـــيط بالمكـــان كجـــدارٍ خفـــي، وكـــان الـــدفءُ الوحيـــد هـــو مـــا ينـــبض فـــي صـــدريهما، ومـــا لا يُقال على الألسنة.

همســـت رُبـــى بعـــد صـــمتٍ طويـــل وصـــوتها بالكاد يُسمع:

-أتظـــنّ أنهـــم ســـيتركونني؟ أتـــدرك مـــا يعنـــي أن يُقـــال عـــن ابنـــةِ وزيـــرٍ إنهـــا هربـــت مـــن عرشها لأجل شاعر؟

ابتسم سالم وكأنه يبتسم للقدر لا لها:

-سيُقال إنها أحبّت كما لم يفعل ملوك الأرض.

فهـــزّت رأســـها كمـــن يـــرفضُ الحلـــم لأنـــه أجملُ مما ينبغي:

-سيأخذونني يا سالم، سيمحون كلّ شيء كما تُطفئ الريحُ شمعةً في دربٍ موحش.

اقترب منها أكثر ونظر في عينيها كأنّه يحاول أن يحميها بنظراته وحدها:

-إن أخذوكِ فخذيني معكِ: في قلبكِ، بين أوراقكِ، في قصائدكِ، في أول دمعةٍ تنزل من عينيكِ حين تشتاقين.

-وإن نسيتُك؟

ابتسم بسكينةٍ موجعة: فأنا كنتُ حُبًّا لا يُنسى أو وجعًا لا يُشفى.

مرت لحظةٌ تشبهُ الفراق لكنها لم تكن فراقًا بعد، حتى سمعت رُبى وقعَ خطوات ليست كوقع الخيول بل أخفّ مترددة، شهق سالم وقام من مكانه، اقترب من الباب بخُطى محسوبة وفتحه شقًّا صغيرًا

كانت فتاة صغيرة بالكاد تبلغ العاشرة تحمل سلّةً فيها خبزٌ يابس وماء، وعلى خدّها وشم قبيلةٍ نائية، سألها سالم بصوتٍ متهدّج:

-مَن أرسلكِ؟

فقالت: العجوز في أسفل الجبل قالت لي أخبري الشاعر أن الليل طويل لكن القلوب التي تُحبّ لا تضيع.

رمق رُبى، فعرف أن الأقدار تمدّ لهما حبلًا من أمل، أخذ السلّة منها وشكرها ثم أغلق الباب، اقترب من رُبى وناولها قطعة خبزٍ صغيرة:

-أتعلمين؟ ما كان الجوع يومًا قاتلًا بل الوحدة حين لا نجد من نقتسم معه الخبز والمطر.

أخـذت القطعـة وبكـت لكنهـا بكـت بحريـة لا خوفًا ولا خجلًا، ثم قالت بصوتٍ واهن:

-لـو أننـي مُـتُّ غـدًا، فسـأموت امـرأةً حـرّة أحبّـت كمـا أرادت، وكتبـت آخـر أسـطر قصّـتها فـي كـوخٍ لا يعـرف المجـد لكـن يعرف الدفء.

ردّ سـالم وهـو يفـتح نافـذةً صـغيرة تتسـلّل منها نُدفُ المطر:

-ولـو مُـتُّ أنـا، فسـيموت شـاعرٌ كتـب بيتَـه الأخير في عينيكِ.

ثمّ نظر إلى الأفق الرمادي وهمس:

-لكننـا لـن نمـوت بعـد، لـيس قبـل أن نكتـب حكايتنـا حتـى وإن قرأهـا العـالم علـى أنهـا خطيئة، فنحن نعلم أنها كانت نجاة.

فـــي الخـــارج بـــدأت الخيـــول تبتعـــد، والعاصـفة تهـدأ، لكـن المعركـة الحقيقيـة لـم تكـن هنـاك بـل كانـت داخـل قلبـين يختبـران الحـب لا كمـا يُقـال فـي الأسـاطير بـل كمـا يُعـاش فـي الخفـاء حيـث تكـون الحقيقـة أنقـى والخسـارة أبهـى، وكـان كـوخُ المطـر شـاهدًا علـى اعتـرافٍ لا يُقـال، وقـدَرٍ يُكتـب على مهل.

★★★

الفصل العاشر

"التاج لا يُخفي الندبة"

★★★

تغادر ربى الكوخ قبل أن ينحني قرص الشمس خلف التلال كأنّها تقايض الحلمَ بنجاتها وتودّع القصيدة لتلبسَ التاج من جديد، كانت ظلال الأشجار تفرش الأرض كما تفرش الذاكرة أوجاعها، والضوء المرتعش خلف الغيوم يشبه قلبها منهك، لكنه لم ينطفئ بعد.

بينما سالم فقد كان واقفًا على عتبة الباب الخشبي، عيناه معلّقتان على طيف الرحيل كأنّه يحفظ تفاصيلها الأخيرة قبل أن يغلق عليها باب الوداع، أمسكت كفّه ورفعت وجهها إليه ثم قالت بصوتٍ خافت:

-سامحني إن عُدتُ إليهم، فبعض الهزائم تكون حفاظًا على من نُحب لا خيانةً لهم.

أجابها بصوتٍ مبحوح: عودي ربى فما نفع قلبي إن صار قبرًا لكِ؟ احفظي حياتكِ وإن دفنتِني بين سطور حكايتك.

تراجعت بخطًى مُرتجفة ثم ركضت والضباب يتبعها كستارٍ يحميها من عيون الغابة، على سفح التل كانت زهراء-وصيفتها الأقرب، ورفيقة طفولتها-تنتظرها كما اتفقتا:

-لقد فتّحتُ الباب الخلفي للقصر لا أحد يراه إلا الليل ...قالتها زهراء وهي تتلفّت كمن يقترف خيانة كبرى.

لكن رُبى أمسكت وجهها بكلتا يديها، ونظرت في عينيها:

-لن أنساكِ، ولو عشتُ ألف حياة.

ثم تسللتا معًا كقطرتي ندى تنسلّان من خدّ ورقة، في الممر الحجريّ الطويل المؤدي إلى الجناح الملكي، كانت الأصوات نائمة، والحرّاس غارقون في سُباتٍ أثقل من ليلٍ بلا قمر، فتحت زهراء باب الجناح، فتسللت ربى إلى الداخل وخلعت عباءتها المبتلّة بالمطر ووقفت أمام المرآة؛ وجهها شاحب وعيناها متورمتان لكنها ابتسمت تلك الابتسامة المرتعشة التي يعرفها من عاش الحبّ الممنوع.

-نجوتُ وأخفيتُ الحكاية تحت وسادتي الحمد لله.

★★★

النجاة حين لا تكون كاملة تتحوّل إلى لعنة!

بعد تلك الليلة بثلاث أيام، وقبل أن يمدّ الصبحُ ذراعيه على أكتاف الليل، دوّت

فـــي أروقـــة القصـــر همســـاتٌ مســـمومة لا تشـــبه الثرثـــرة بـــل تشـــبه نبـــوءات الخـــراب، صـــار القصـــر كخليـــة نحـــلٍ انقلبـــت، حـــديثٌ خافت يتهامس به الجميع:

-هـــل ســـمعتم؟ الأميـــرة لـــم تكـــن فـــي جناحهـــا تلـــك الليلـــة بـــل كانـــت فـــي حضـــن راعٍ اســـمه سالم، إنه ذاك الشاعر المجنون!

كـــادت ربـــى تســـقط عـــن درج الرخـــام حـــين ســـماعها ذلـــك، قلبهـــا خفـــق كطبـــل الحـــرب، وعينيها اتسعتا كأنّ أحدهم طعنها.

-مـــن أطلـــق الشـــائعة؟! ...صـــرخت لكـــن الســـؤال كان تافهًا أمام الزحف الذي لا يُرد.

فتـــدخل غرفتهـــا وتغلـــق البـــاب خلفهـــا ثـــم ترتمـــي علـــى الأرض كأنهـــا تهـــوي مـــن قمـــة

العـــالم، وتنفجـــر باكيـــةً لا خوفًـــا مـــن الفضيحة بل وجعًا من ظلم الحكاية.

-الرجـل لـم يلمـس ثـوبي حتـى! لا ذنـبَ لـه، أنـا، أنـا التـي بكيـتُ علـى صـدره، بكيـتُ كمـا تبكي الأرض حين تشتاق للمطر.

كـل تلـك الهمسـات كانـت لا شـيء أمـام الصـاعقة، دُقَّ البـاب بعجلـة وكـأنّ خلفـه نـذير شـؤم، انـدفعت الوصـيفة رُقيّـة إلـى الـداخل، وجههـا شـاحب، أنفاسـها متقطعـة وعيناها مذعورتان:

-سيدتي! الملك يطلبكِ فورًا!

★★★

دخلـت ربـى القاعـة الكبـرى التـي كانـت صـامتة، ثقيلـة كمـا لـو أنهـا مقبـرة، الـوزير يقـف بانتظارهـا، لا عـرش، لا رحمـة، يـده تمسـك الصـولجان كأنـه سيكسـر بـه أحـدًا،

نظـــر إليهـــا بعينـــين مـــن نـــار، وقـــال بصـــوتٍ هدّ ما تبقى من تماسكها:

-أجيبينـــي بصـــدقٍ لا ينجـــو مـــن سُـــقمي، هـــل خرجتِ من القصر تلك الليلة؟

لـــم تجبـــه لكـــن عينيهـــا قالتـــا كـــل شـــيء، فيقترب ويضرب الأرض بقدمه:

-هـــل التقيـــتِ بـــراعِ الأغنـــام الـــذي ظـــن أن قصيدة كتبها قد تجعل منه شيئاً؟

ارتعشت ثم قالت: ذهبتُ إليه أنا.

الملك شهق كأن قلبه انفجر:

-أنتِ، من ذهبتِ؟!

أومأت ثم خرج صوتها مشروخًا:

-أقسم بشرفي أنه لم يلمسني.

فيقاطعهـــا صـــارخاً: أيُّ شـــرفٍ تتحـــدثين عنـــه؟ هـــذا الـــذي يُـــذبح تحـــت نجمـــةٍ بـــلا

شـــاهد؟ ربـــى بنـــت هـــارون الـــوزير تفقـــد شرفها في حضنِ راعٍ لا نسب له

لكـــن رُبـــى لـــم ترتعـــد هـــذه المـــرة بـــل تقـــدّمت كمن تحترق ولا تصرخ:

-إن كـــــان الشـــــرف هـــــو أن أُزفَّ لمـــــن لا أرغبـــه، فخـــذوا شـــرفكم وانحـــروا قلبـــي! أنـــا مـــن بعثـــت الرســـالة، أنـــا طلبـــتُ لقـــاءه عنـــد بـــــزوغ الفجـــــر، فقـــــط لأراه ولـــــم يحـــــدث شيءٌ، أنا من خنتُ التاج لا هو!

توقّـــف الملـــك لحظـــةً كـــأنّ روحـــه اصـــطدمت بجدارٍ من الغضب ثم همس بصوتٍ غليظ:

-ســـــتُزفّين بعـــــد يـــــومين إلـــــى ابـــــن والـــــي الشرق، وليس لكِ من الأمر شيء.

-لا! مستحيل!

اقترب منها.

-بـــــل ســـــتفعلين وستبتســـــمين، وذاك الراعي، ذاك المجنون؟

تجمّدت الدماء في عروقها.

-سيدفع الثمن.

أسرعت إليه أمسكت يده، ركعت عند قدميه:

-لا تـــؤذه! أرجـــوك!، أنـــا المخطئـــة، أنـــا وحدي، اقتُلني ولا تلمسه.

دفعهـا بقـوة، سـقطت، لـم تبـكِ، فقـط نظـرت إليه بعينين محطمتين.

-سأتزوج، فقط لا تمسّه.

لكـن الـوزير خـرج ولـم ينظـر خلفـه، ورُبـى أدركـت الحقيقـة: حـين يخـرج الـوزير دون أي كلمة تبدأ المجزرة.

★★★

الفصل الحادي عشر

"القصيدة التي كُتبت بالدم"

★★★

كان سالم جالسًا تحت شجرة سروٍ شامخة في أعالي التلّ، بردُ جمادى الآخرة ينهش أطرافه لكن قلبه مشتعلٌ كأنّه في تموز، في حجره رقٌّ قديم، ويده تمسك بريشةٍ بلّلها المداد، لكنّ عينيه لم تكن على الحروف بل على الأفق كأنّه ينتظر ما لن يأتي، الهدوء حوله كان خادعًا، فجأة رأى الغبارَ يتصاعد من بعيد، خيولٌ تُقبل تسابق الريح لا تحمل معها بشائر، سيوفٌ تلتمع في ضوء الغروب، وأوشحةُ الجند تُرفرف كأعلام الغضب، زمّ سالم شفتيه ثم رفع بصره وتمتم:

-هكذا إذًا؟ النهاية تُرسل على صهوة حصان.

انكسر صوته، فانكسر معها قلبه، كسر الريشة، ووضع الرقّ جانبًا.

-القصيدة القادمة لن تُكتب بالحبر بل بالدم.

وصل الفرسان فأحاطوه من الجهات الأربع، خمسةٌ هم يتقدّمهم رجلٌ في صدره صولجانُ السّلطة وعيناه كأنّهما حُكمٌ قبل أن يُقال، قال بصوتٍ كالسيف إذا نزل:

-سالم بن فلاح أنت متهمٌ بالتسلّل إلى القصر وانتهاك حرمة ابنة الوزير، بأمر مولانا الوزير تُؤخذ مقيَّدًا إلى دار الحكم.

أطرق سالم لحظة ثم نظر إليه وقال بهدوء:

-لم أدخل قصرًا بل دخلت قلبًا، وإن كان الهوى جريمة، فخذوني مُعترفًا لا هاربًا.

مـدّ يديـه إلـى القيـود كأنّهـا طـوقٌ مـن شـعره لا مـن حديـد، سُـحب مـن التـلّ كمـا تُجتـثُّ شـجرةٌ عـن أرضـها، والجبـل يشـهد علـى وداعٍ لا يُعاد.

★★★

فـي قصـر الـوزير كانـت ربـى جالسـةٌ فـي جناحهـا وقـد انطفـأت قناديـلُ السـهر، وانطفـأ مـا فـي قلبهـا مـن رجـاء، إلـى جوارهـا زهـراء همسـت والـدمع علـى وجنتيها:

-اهربـي، اهربـي إن بقـي فيـكِ نـبض، سيُؤخذ وسيُذبح في ساحة العدل.

لكـن ربـى لـم تجـب، كانـت تسـمع شـيئًا فـي صدرها، صوتًا يقول:

-إمّا أن تُنقذيه أو تموتي مرتين.

فُـــتح البـــاب بغتـــة ودخلـــت رُقيّـــة مهرولـــة وجههـــا كالقمـــاش الأبـــيض بعـــد المطـــر وثوبها ملوّثٌ بالطين:

-سيدتي! لقد أُمسك بسالم وأُخذ إلى دار الحكم!

تســـاقط المشـــط مـــن يـــدها وســـقطت معـــه أنفاســـها، لـــم تُمهـــل أحـــدًا، خرجـــت كعاصـــفةٍ بلا خمار، بلا استئذان.

★★★

فـــي قاعـــة الحكـــم أضـــحى المجلـــس عـــامرًا برجـــال الدولـــة، والســـيوف علـــى الأكتـــاف، والمهابـــة تعلـــو الوجـــوه، وفـــي قلـــب المجلـــس وقـــف ســـالم وقـــد لطّخـــت الـــدماء طـــرف ردائـــه محاطًـــا بجنـــد الخليفـــة، مقيّـــد المعصـــمين بسلاســـل مـــن حديـــد لا تليـــق بيـــد شـــاعرٍ مـــا مسَّـــها غيـــر الـــدواة والقرطـــاس، حـــاول أن ينظـــر حولـــه بحثًـــا عـــن عينيهـــا،

عن طيفها، عن أيّ حضورٍ يردُّ له شيئًا من الدفء لكن الوجوه كانت جامدة، وقلوب الرجال حجارةٌ صلدة لا تعرف ما تعنيه نظراتُ شاعرٍ تُقتاد خطاه إلى النفي لا الموت، ولكن ما بعده.

في تلك اللحظة اندفعت ربى ابنة الوزير كأنها اقتحمت الزمن لا المكان، بثوبها الحريري الأسود المتشح بالحزن قبل الفقد، عينان دامعتان، وشَعرٌ مسكوب على كتفيها كستارٍ أسودٍ من السهاد، فتصايح الجند نحوها لكنها ركضت بين صفوف الحرس وصرخت:

-لا تأخذوه! بالله عليكم لا تفعلوا، ليس هو من أخطأ! لكن صراخها ارتطم بالجدران ثم تكسّر على أرضٍ لا تعرف للعدل صوتًا، حتى

جاء من خلف الجموع قائد على رأسه عمامة القضاة، وعلى صدره وشاحُ الخليفة، معه الوزير، فارتمت عند قدميّ والدها وقد اختلط وجيبُ قلبها بصوتها المتكسّر:

-يا أبتاه إن كنتَ تُريد موتي فاقتله أمامي، وإن كنتَ تعرف للرحمة طريقًا فعفوك عنه نجاة لي لا له.

سكن الهواء، وسكن الحُجّاب، وسكنت المشاعل، حتى رفع القائد بيده وقال بصوتٍ كالرعد إذا هدأ:

-قد صدر العفو بأمر الخليفة الناصر، وشفاعةً من الوزير، على أن يُنفى سالم من بغداد ولا يُقيم بها ما دام حيًّا.

سالم لم يُحرّك ساكنًا، فقط همس لنفسه:

-"النفي من المدينة أهون من النفي من قلبها."

★★★

بعد حين خاطب الوزير القوم ثم أعلن خبراً سارًّا في ظاهره:

-في الخامس من جمادى الآخرة يُعقد قران ابنتي ربى على ابن والي واسط، ومن كان في بغداد فليشهد الفرح لعلّ في الولائم ما يُنسي الآهات.

سقط الخبرُ على العاشقين كحجرٍ في بحرٍ راكد، تشقّقت الملامح وتشقّق شيءٌ في صدر سالم لم يكن قلبه وفقط، أدار وجهه عن ربى كأنّه يحتمي من الطعنة بالنسيان، أما ربى فلم تصرخ ولم تبكِ بل ابتسمت ابتسامةً واحدة ضائعة، حزينة كأنها تقول "لقد غفرتَ له لكنك قتلتَني."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

بعـــدها يخـــرج ســـالم يســـيرُ بـــين الجنـــود لا يلتفـــت خلفـــه، لكـــن الخطـــوة الأخيـــرة كانـــت الأثقـــل فقـــد خـــرج مـــن المدينـــة وتـــرك روحـــه خلفه في قلبٍ لن يُعاد إليه أبدًا.

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الفصل الثاني عشر

"الوداع"

★★★

بغداد، الخامسُ من جمادى الآخرة.

بغداد تلك الحسناء التي تعبق بالتاريخ والمآسي بدت كعروسٍ تُزفُّ إلى المدى لا يُخال الناظر إليها إلّا وقد أُغشيَ على قلبه من فرط البهاء، البيارق تعلو كآياتُ نصرٍ منسيّ، والطبول تُقرعُ كأنّ الزمنَ عاد جنديًّا لا يُجيد سوى الإيقاع، والطرقاتُ مفروشةٌ بما لا يُفرش به إلا نعيم الجنة: وردٌ، وذهبٌ، وعيونٌ تترقّب.

أما في قصر الوزير فقد اجتمع وجهاءُ بغداد: التجّار بعمائمهم المطرّزة، الشعراء بأرواحهم المصلوبة على القوافي، الفقهاء، والفرسان، حتى

الغربـــاء جـــاؤوا يســـألون عـــن عـــرسٍ يُقـــال إنّه سيُغيّر خارطة النسب والسلطة.

وكانـــت العـــروس ربـــى؛ ربـــى كريمـــة الـــوزير وريثـــة الحـــزن والعنـــاد، تُـــزفُّ اليـــوم إلـــى ابـــن والـــي واســـط، رجـــلٌ لا ســـكن قلبهـــا ولا مـــرّ فـــي نســـيج أحلامهـــا، لكنـــه يملـــك توقيعًـــا واحدًا يكفي ليُغلق عليها أبواب الحرية.

فـــي حجرتهـــا العُليـــا جلســـت ربـــى جامـــدةً كتمثـــالٍ نُحـــت مـــن الياســـمين المحتـــرق، بينمـــا وصـــيفتها زهـــراء فقـــد وقفـــت تمشـــط شعرها وتهمس بانكسار:

-ســـيدتي لـــم تعـــودي أنـــتِ بـــل ظلّـــكِ صـــار أغرب من غيابك.

لـــم تُجـــب ربـــى لكـــن فـــي صـــدرها قلـــبٌ يضـــربُ كمـــا الطبـــل فـــي ميـــدان الحـــرب، لا يُريد نجاة بل معركة لا تقف إلّا على قبر.

★★★

فـــي الســـاحة الكبـــرى للقصـــر نُصـــبت الخيـــام كأنهـــا خُـــدّامُ القيصـــر، وامتـــدّت الموائـــد حتـــى خجـــل النهـــر مـــن بَـــذخهم، الرجـــال يتغـــامزون، والنســـاء يتهـــادين كـــأنّهن نجـــومُ عـــرسٍ فـــي الســـماوات، كـــلُّ شـــيءٍ يُنشـــد الفرح إلّا واحدًا.

★★★

فـــي الزاويـــة المقابلـــة لقصـــر الـــوزير جلـــس ســـالم تحـــت شـــرفةٍ شـــهدت يومًـــا ضـــحكتها، وكـــان حينهـــا رجـــلاً حيًّـــا، اليـــوم لا ظـــلّ لهـــا، لا ضـــوء، ولا وعـــد، جلـــس كمـــا يجلـــسُ الأســـير فـــي ســـاحة الإعـــدام لا يتوسّـــل الحيـــاة ولا يُخاصـــم المـــوت، وجهـــه شـــاحب،

عيناه تغليان بألف عتابٍ صامت، وثوبه كُسيتْه الهزائم لا الحرير، أخرج من جيبه سكينًا صغيرة من تلك التي تُهدى في زمن الحبّ لا الحرب، لكنّه لم ينقش بها اسمًا على جدار، ولا أولَ حرفٍ من اسمها، شقّ بها كفّه، شقّها كما يُشقُّ كتابٌ لا يُقرأ مرّتين، وانهمر الدمُّ كثيفًا، حارًا، حيًّا، بلّل الرُّقّ الذي كان في صدره، وكتب قصيدته الأخيرة، لم تكن قصيدةً تُتلى في الدواوين بل شهادةً لا تُنسى، كتبها بعمره لا بحبره.

-"في جمادى أُزفّ إلى موتي، وأنتِ تُزفّين لغيري، أنا سالم، من كتبكِ في صدره لا على ورق، إن كان الزفافُ عرسًا لكِ فهو عزاءٌ لي، فقولي

لضيفهم: هذا دمي الذي احترق، وقولي: تحت شرفتها مات شاعرُ الهوى، لم تمتدّ إليه سيوفٌ بل ذنبه كان العشق."

سقط الرقّ من يده وقد اختلطت به دماؤه، نظر إلى السماء ثم إلى النافذة وهمس:

-ما نفعُ قلبٍ خلا منكِ؟ أأحملهُ ميتًا أم أدفنهُ بي؟

وأسند رأسه إلى الجدار تحت شرفتها ثمّ لفظ أنفاسه، لا كمن مات بل كمن سلّم الروح طائعًا لعشقٍ لم يعرف له خلاصًا.

★★★

في تلك اللحظة كان الموكبُ يُعدّ، والزفّةُ تنتظر، والعروس تُزيَّن بيدٍ، وتُطفأ بها الروح بالأخرى، الكلُّ منشغلٌ بالأهازيج إلا الخادم الذي طرق جناح العروس

مـــذعوراً، فـــي الهزيـــع الأخيـــر، كـــان يتلعـــثم كمن يحمل موتًا في فمه:

-مولاتي، الشاعر سالم وجدوهُ قتيلًا تحت شرفتكِ.

شـــهقت ربـــى شـــهقَة مَـــن سُـــحب قلبـــه دفعـــةً واحدة وصرخت حتى تكسّرت النوافذ:

-أطفئـــوا القناديـــل، ســـالم تحـــت شـــرفتي قتيـــل!

أطفئوا القناديل، سالم تحت شرفتي قتيل!

ركضـــت حافيـــةً بثوبهـــا الأبـــيض المتّســـخ بالنـــدم، ركضـــت كمـــن تحـــاول اللحـــاق بـــروحٍ غـــادرت للتـــوّ، ووصـــلت، فوجدتـــه ممـــددًا تحـــت الشـــرفة كأنمـــا ســـقط مـــن القصـــيدة لا مـــن الحيـــاة، وجهـــه هـــادئٌ وعينـــاه نصـــفُ مفتـــوحتين، وعنـــد صـــدره ورقـــةٌ داميـــة كُتبتْ عليها آخر أبياته.

انتهى العُرس، أُطفئت الأنوار، وأُسدلت الستائر، رُفِضت الزفّة، وكُفّنت ليلةُ العُرس بالسواد.

وفي اليوم التالي صبيحة الفجر ساقوها إلى بيت الزوج كما يقتادون أسيرةً من قلب النكبة، لم تمشِ كما تمشي العرائس بل كما تُساق المذنبةُ إلى المقصلة، كلُّ خطوةٍ كانت تنزع عنها روحها شيئًا فشيئًا حتى بدت جنازةً بيضاء تمشي على قدمين.

وفي بغداد ومنذ ذاك اليوم خمدت ربى، صمتت صمتَ القبور، لا تأكل، لا تشرب، ولا تنطق كأن صوتها دُفن مع سالم، وقلبها اختار أن يرقد بين ضلوعه، وبعد تمام شهرٍ من موته، أُغمضت عيناها،

وسقطت يدها، وأسلمت روحها في صمتٍ مودعةً حياةً لم تكن تعنيها شيئا، وجدوا عند وسادتها وصيّةً بمدادٍ باهت:

-"أعياني الحنين، ما فارقني يومًا
فاخترتُ أن أسبقهُ للرحيل.
ادفنوا ما تبقّى منّي بقُربه
فلعلّ الترابَ يكونُ السبيل."

★★★

قال الحكماء: ذاك سُقامُ القلب لا الجسد، بعد وفاته لحقت به، ماتتْ وهي تقرأ القصيدة التي كتبها عنها.

وفي يوم دفنها غُسِّلت بدموعِ الجاريات، وكُفِّنت في عباءةٍ من الحرير الأزرق الذي كان يُحبّه، ودُفنت إلى جواره ووُضعت لوحَة رخامٍ على قبرها نُقِش عليها بيتٌ من إحدى قصائده:

-"هـــي القصـــيدةُ إن همـــى مطـــرٌ ... فاســـمُها يتلألأُ في صدرِ الغمام."

ومنـــذ ذاك اليـــوم صـــار النـــاس يـــأتون مـــن أطـــراف بغـــداد لزيـــارة قبرهـــا فيقـــرؤون الفاتحـــة ثـــم يُنشـــدون شـــعره، أطلقـــوا عليهـــا لقـــب "أرملـــة القصـــيدة" وباتـــت قصّـــتها تُـــروى فـــي المـــدارس والخُطـــب، تُقـــرأ علـــى ضـــوء السُّـــرُج فـــي الليـــالي البغداديّـــة الحزينة.

★★★

أمـــا زوجهـــا ذلـــك الـــوالي القاســـي فـــي ظـــاهره، فكـــان يُخفِـــي دمعـــه فـــي كمّـــه، وفـــي أحد المجالس سُمع يقول:

-ما عرفتُها حقًّا إلا حين قرأتُني في قصائدها.

قِيـــل إنّـــه لـــم يتـــزوّج بعـــدها قـــط، وأنّـــه أمـــر بجمـــع ديـــوان الشـــاعر، وطبعِـــه فـــي خـــزائن

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

بيــت الحكمــة وكتــب علــى غلافــه بمــدادٍ مــن ذهب:

-"ديــوان شــاعر الهــوى الــذي أحــبّ فمــات وماتت من بعده أرملة القصيدة."

★★★

الختام

وهكـــذا أُســـدل الســـتار علـــى حكايـــةٍ لـــم تُســـطّرها أنامـــل كاتبـــةٍ بـــل انســـكبت مـــن قلبـــين مـــا أرادا مـــن الحيـــاة ســـوى أن يصـــيرا بيتًـــا واحـــدًا فـــي قصـــيدةٍ، لا يُنصـــت لها إلا من ذاق الوجع وسجد له.

لـــم يكـــن "ســـالم" مجـــرد شـــاعرٍ عـــابر بـــل كـــان حجّـــةً علـــى أن العشـــق لا يُقـــال، بـــل يُعـــاش حـــدّ الفنـــاء، وأن القصـــائد التـــي لا تُكتَب بالدم، لا تستحق أن تُخلد.

أمـــا "ربـــى" فلـــم تكـــن أنثـــى تمـــرُّ علـــى العمـــر مـــرورًا عـــابرًا، كانـــت مملكـــة تنهـــار عنـــد رجفـــة اســـمه، ومدينـــة لا تُفـــتح أبوابهـــا إلا إذا خطّ حروفها بأنفاسه.

فـــي زمـــنٍ تُبـــاع فيـــه الأرواح بأثمـــان الأنســـاب وتُخـــرس فيـــه القلـــوب باســـم العقـــل اختـــارا طريقًـــا لا يُـــؤدّي إلـــى نصـــر بـــل إلـــى وجـــعٍ مقـــيم، لأن الخســـارات حـــين تكـــون لأجل الحبّ تصبح أنبل أشكال النجاة.

قـــد تفنـــى الأجســـاد، وتتبخـــر الـــذكريات، لكـــن الكلمـــات التـــي وُلـــدت مـــن رحـــم الألـــم تبقـــى، والقصـــائد التـــي كُتبـــت علـــى جـــدران القلـــب لا تُمحـــى بـــل تُـــورق مـــن جديـــد فـــي قلـــب كـــل عاشقٍ بكى.

إن وصـــلتَ إلـــى هنـــا فاعتبرهـــا إشـــارة؛ لا تكـــن شـــاهدًا علـــى مذبحـــة حـــبٍّ لـــم يُولـــد بعـــد، ولا تكـــن الســـبب فـــي مـــوت قلـــبٍ كـــان ينتظرك لتمنحه الحياة.

★★★